بنات الازبكية الجميلات

او

آفة مصر الجديدة

(مباحثة بين ثلاثة)

كتبت تحت سماء مصر في وادي النيل العظيم

١

سمعت يوماً حديثاً جديراً بالتدوين في بطون الاوراق . فقد تسلقت مرة قمة الصخرة الصناعية القائمة في حديقة الازبكية (١) ويسميها العامة الجبلاية لعلوها كالجبل وجلست في اعلاها اقرأ كتاباً معي على موازاة رؤوس اشجار الحديقة بين نعيق الغربان التي كانت تحوم حولي . واني لكذلك واذا باثنين من طلبة المدارس قد صعدا وجلسا بعيداً عني . وانني كثيراً ما دخلت الحديقة فوجدت بين اشجارها وازهارها بعض طلبة المدارس يراجعون دروسهم ويتباحثون فيها وكان ذلك يسرّني مسرّة شديدة حتى انه كان احياناً يشغلني عن الحديقة واشجارها واطيارها فاتلهى بالاصغاء الى مناقشاتهم في الطب والحقوق والصرف والنحو وانا جالس بعيداً عنهم دون ان يعلموا باني مصغٍ اليهم . وعند كل نكتة او خلاف كان يظهر بينهم كنت ابتسم واتذكر الاوقات المدرسية الحلوة التي كنت فيها مثلهم . نعم كان يسرّني رؤية الطلبة في حديقة الازبكية يدرسون ويستنشقون هواءها النقي وهم بمعزل عن ضوضاء العالم ومشاغله الا انني لما رأيت التلميذين يصعدان الى حيث كنت جالساً وينفردان في الجهة المقابلة لجهتي في قمة الصخرة شعرت بشيء من الانقباض والاستياء . وسبب انقباضي خوفي من الطلبة الذين يطلبون الانفراد عن رفاقهم في اماكن لا تنفذ اليها العيون . نعم انني علمت ان الانفراد عن الناس في الصغر او في الكبر قد يكون في بعض الاحيان حاجة من حاجات النفس تميل اليها اما لرقة شعورها او لألم وجدته في الاجتماع او لمرض يصيبها او لكبر غريزي فيها قد يكون ضرّه اكثر من نفعه . الا ان هذا الانفراد هو

---

١) **الازبكية اعظم احياء القاهرة وهي في قلب المدينة حول حديقة واسعة مغروسة بالاشجار الضخمة على شكل دائرة**

انفراد مطلق اي انه يكون انفراداً عن الجميع حتى عن الرفيق الصديق . ولكن متى رأيت طالبين او اكثر يطلبون الانفراد معاً في مكان مستتر فعليك ان تخاف عليهم من هذا الانفراد خوفك عليهم من الاسود والذئاب . ومما كان يثبت هذه الشبهة لديّ معرفتي ان هذه (الجبلايه) كانت من قبل قرارة اقذار وملجأ قبيحاً لمن يريدون الاستتار عن الابصار. حتى اذا تفاقم خطبها ابطلت الحكومة القهوة التي كانت فيها واطلقتها للزائرين . ونعم ما فعلت الحكومة في هذا الشان لولا انه بقي عليها ان تقيم فيها خفيراً يمنع دخول النساء اليها اصلاً صيانةً للشبيبة المصرية التي تتردد على الحديقة . فقد رأيت يوماً في جوف الجبلايه احد الطلبة وهو لا يناهز الواحدة والعشرين في يساره دفتر دروسه وفي يمينه يمين حسناء لعوب

٢

ولما جلس الطالبان التفت اصغرهما الى اكبرهما وقال : هوذا صاحبنا يوحنا . انظر اليه كيف اصبح لا يستطيع جرّ قدميه . لا ريب في انه يجهد نفسه كثيراً في الدرس والسهر اليس هذا هكذا يا بطرس ؟

فتبسم بطرس وقال : كلا يا احمد ليس الدرس هو الذي فعل بصاحبنا هذا الفعل . بل هنالك سبب اخر اخجل من ذكره لك

فبهت احمد ثم قال : ما هو هذا السبب الذي تخجل من ذكره لي فقد شغلت بالي وهجت بلبالي . افتظن بعد قولك هذا انه يهدا لي بال قبل ان اقف عليه

فقال بطرس : صدقت يا صديقي فالكتمان لا يجدي نفعاً في كل حال . فانك انت قدمت من قريتك الساذجة الهادئة الى مصر منذ ثلاثة ايام فلا بدّ ان تطلع على ما فيها بعد اسبوع او سنة . وحينئذٍ تباغتك اشياؤها مباغتة الوابل للارض الظمأى التي اشتدّ بها الاوار . فلا تجد من نفسك قوة على تحمل وقع هذه المباغتة فتستسلم اليها ويجرفك التيار . نعم صدقت يا احمد يجب ان اعطيك قوة التحمل والمقاومة لتقابل بها قوة الضعف والانحلال والا اصابك ما اصاب صاحبنا يوحنا . وهذا ما حدا بي الى التصريح لك بذلك . فاصغِ اليّ

لبلائه عدة اسباب ولكن اهمها واكبرها سبب واحد جميعها ترجع اليه . انظر الى هذه الطريق الممتدة امامنا من فندق شبرد الى نيوبار ولاحظ حركات النساء اللواتي يسرن عليها . هؤلاء النساء هنّ علة البلاء والجرح الدامي الذي يسيل منه الان خير ما في بدن مصر المسكينة من الدماء

انظر ترهنّ كجيش يحمان على الطريق حملةً شعواء . انظرت تلك الهيفاء الممشوقة

القوام الرائعة الجمال التي في عينيها طفولية دائمة وثيابها وقبعتها من اجمل واظرف ما يكون ؟ هذه فتاة فرنسوية . انظرت تلك القصيرة الرقيقة التي تلبس رداءً شتوياً طويلاً وهي كالنحلة خفة ورشاقةً عيناها وابتساماتها تجذب اليها الابصار والقلوب كما يجذب الحديدَ المغناطيس؟ هذه حسناء ايطالية . وتلك التي على راسها قبعة حمراء وتتبختر كأنها كليوبتره في شوارع الاسكندرية ؟ هذه سيدة المانية . ثم انظر الى اولئك فهذه انكليزية وهذه نمساوية وتلك يونانية وتلك بلجيكية . ماذا اقول لك ايضاً انك تجد بينهنَّ حتى فتاة يابانية . نعم يا صديقي فان حسان العالم باسره يحملنَ اليوم على مصر المسكينة حملة عمومية . فان الرزق فيها كثير والتدبير قليل والجمال المحلي نادر وجنون الشبان وتصابي الشيوخ اكثر فيها من كل بلد غيرها حتى في الاجانب والنزلاء الذين يسكنونها . ومن اجل هذا تجد ان الفساد راج فيها اليوم رواجاً لم يُعرف فيها من قبل في اي تاريخ من تواريخها . فاذا جنَّ الليل ترى الطالب منا يترك كتبه ومدرسته . والمتزوّج يهجر بيته واولاده وزوجته . والكبير الجاه يترك جاهه ومنزلته . والشاب العازب غنياً او فقيراً ينسى نفسه وجيبه وصحته . وجميعهم يتهافتون تحت جنح الدجى على صحفة العسل القذر المسموم تهافت خنزير اصاب جيفته . ان جول سيمون الفيلسوف الفرنسوي كان كلما ابصر في حياته العاملات والاولاد تفسد اخلاقهم وآدابهم وصحتهم في المعامل بما يلاقونه فيها فانه كان يصيح ملءَ فيه : ان دم فرنسا يفسد شيئاً فشيئاً . فنحن الآن للحالة التي وصفتها لك نصيح بحق قائلين : ان دماءَ مصر تفسد شيئاً فشيئاً اذا لم تدبروا طريقة لاصلاحها

فدهش احمد وقال : فهمت الان سبب انحلال قوى يوحنا . واذا اضفنا هذا الخطب الجسيم الى مقتضياته ولوازمه كالمسكرات والسهر الطويل والمقامرة لربح المال توصلاً اليه عرفنا التنين الهائل الذي يمتصُّ اليوم دماءَ مصر وثروتها ويفني قوى شبيبتها . ولكن لماذا لا تتداخل الحكومة لاستئصال هذا الشر من اصله وسحق هذه الافاعي الجميلة المطيبة التي تفني قوى ابنائها

فاجاب بطرس : ان سؤالك هذا يتضمن قضيتين . الاولى استئصال الحكومة هذا الشر والثانية (سحق الافاعي الجميلة) كما سميتها . فانا لا اجيبك عن القضية الاولى لان البحث فيها يقتضي اسهاباً وتفصيلاً ليس هنا محله . بل اكتفي بان اقول لك بان الحكومة عاجزة عن مداواة هذا الداء لعدة اسباب اجتماعية وسياسية اهمها ان هذا الداء كائن في اصل الهيئة الاجتماعية نفسها . ولا يثمر الفساد الا فساداً . وهذا بحث اجتماعي فلسفي طويل ارجئُ

الحوض معك فيه الى فرصة اخرى . واما القضية الثانية فانني ابحث معك فيها بحثاً مسهباً لأمر ساطلعك عليه في خاتمة الكلام اذا كنت لا تقف عليه من تلقاء نفسك . وهذا هو غرضي من كلامي معك في هذا الموضوع الان

اسمع يا احمد . انك سميت هؤلاء النساء (افاعي جميلة مطيبة) فانت اصبت واخطأت معاً . اصبت لان ضررهنّ قد يكون اشد من ضرر الافاعي ولسعاتهنّ اشد ايلاماً . واخطأت لان قولك هذا يوهم بانه يجب ان يحملنَ وحدهنّ تبعة الحالة الهائلة التي امسينَ فيها . ولكنك اذا بحثت قليلاً وجدت العكس . اقرأ ما كتبه عنهنّ اسكندر دياس الصغير (الذي هو في الحقيقة الكبير) وابوه دياس الاب وفيكتور هيغو والفريد دي موسه فترى ما يستدرّ الدموع ويحيي الضلوع . فان الاول كتب فيهنّ (لادام اوكاميليا) والثاني (فرناند) والثالث (ماريون ديلورم) والرابع (برنرت) واي انسان ذي احساس يقرا هذه الكتب الاربعة ويرى شقاء المرأة الشقية وعذابها وآلامها من خلال مظاهرها اللامعة وظواهر السرور التي تضطرُّ الى الظهور بها ولا يتصدع قلبه كآبةً وحزناً على شقاء هذه الانسانية الساقطة . بل ما لنا وللقصص والروايات فان اللورد كرومر نفسه شهد لهنّ في تقريره السابق شهادة بمقام الف شهادة . فانه قال ما خلاصته ان هؤلاء النساء يشتغلنَ في مصر بشغلهنّ الهائل باغراء رجال يقرضونهنّ شيئاً من المال ثم يقيدونهنّ بهذا الدين تقييد السجين بالقيود . او انهنّ يكنّ متزوّجات او مرافقات فيسهل لهنّ رفاقهنّ هذا الامر لكي يعيشوا بدناءة ونذالة مما يكسبنه وهنّ يخفنَ منهم خوفاً شديداً . وهذا منتهى ما تنحطُّ اليه الانسانية في الرجال وهي وا اسفاه درجة احط من درجة الحيوانية لانه لم يروَ عن الحيوان نذالة كهذه النذالة . والغريب ان الهيئة الاجتماعية تدري بهذه النذالة وتغض الطرف عنها . ولما يكلّف ذو عقل مثلك بابداء راي في هذا الامر يصبُّ جام غضبه على المرأة وحدها ويسميها (افعىً جميلة مطيبة) . ان هذه الافعى يا احمد قد تكون افعى كما تقول ولكنها افعى صغيرة ضعيفة . وهي شهيدة الهيئة الاجتماعية الظالمة التي تتركها تبيع شرفها لتأكل به خبزاً وضحية (الافاعي الحقيقية والخنازير البشرية) التي تنتفع بها . فعلى رؤوس الهيئة الاجتماعية والافاعي والخنازير البشرية يجب ان يصبَّ الله والناس ما في الجحيم من نار ابدية ولعنات سرمدية

وربما تقول قد عرفتُ الافاعي الحقيقية . عرفت نذالة الرجال بل البهائم الذين يسترقون ويستثمرون المرأة الضعيفة دافعين بها الى قعر الهاوية . ولكن لم اعرف من هم

(الخنازير البشرية) الذين ذكرتهم فاصغ اليّ

ان هذه المرأة الجميلة النظيفة المطيّبة التي تراها في الشارع وهي تبحث بعينيها بين الناس لا تخرج من بيتها الا في المساء لانها تقضي النهار في النوم وذلك لانها تقضي الليل في السهر. فتخرج من بيتها ماشيةً او راكبةً وليس في جيبها احياناً غير اجرة المركبة . وفي خروجها من البيت قد تكون نفسها في اشد حالات الالم . فان الليل مظلم كالمستقبل الذي امامها في آخر عمرها . وترى نفسها وحيدة فريدة بين الزوابع والامطار وسط اناس سكارى باخلاق الثمورة والذئاب يزدحمون حولها في الشوارع والحانات . انك تراها تضحك وتبتسم هنا وهناك ولكن ادخل الى نفسها واقرأ افكارها تجد انها لا تفكر في شيء مما حولها . فان فكرها بعيد جداً . هي تفكر بصاحب المنزل الذي يطالبها باجرة منزلها ويتهددها بالطرد او بالحجز . هي تفكر بالخياطة التي بعثت في يوم واحد ثلاث مرات تطلب رصيد حسابها والا رفعت قضية عليها . وبصاحب الرستوران (المطعم) الذي ان لم تدفع اليه قيمة اشتراكها مقدماً رفض اشتراكها . وفوق هذا وهذا — هناك في مكان مستتر شخص ينتظر آخر الليل ليأخذ منها النار المحرقة التي تكون قد باعت عرضها بها . انها فكرت في كل ذلك قبل خروجها من البيت في المساء وبكت قليلاً . ولكنها الان تضحك وتبتسم لانها في السوق . ان الابتسام يجذب اما البكاء فينفّر فيجب اذاً ان تبتسم في شفتيها وان كانت تبكي في نفسها . واذا وجدت انها لا تبتسم تبسماً كافياً دخلت احد « الپارات » وتناولت من الجعة « البيرة » لو الويسكي او الكونياك ما يزيل كل اثر للكآبة من عينيها ووجهها . ثم تنطلق في سبيلها

فهل تعلم الان من هم « الخنازير البشرية » الذين اشرت اليهم آنفاً . هم اولئك الغلاظ النفوس الذين يرون ضعف هؤلاء المسكينات الشقيات فيغتنمون فرصة شقائهنّ وحاجتهنّ الى المال على ما تقدم لابتياع شرفهنّ بابخس الاثمان

ان هؤلاء الخنازير مساوون لتلك الافاعي وكلا الفريقين احطّ من المرأة الشقية التي يدنسونها بملاذهم الخشنة . يقولون انهم يشترون بضاعة معروضة بثمن يدفعونه ولذلك يحسبون انهم قاموا بما عليهم . فلله درّ منطقهم . انني اترك لهم منطقهم واسلم لهم بقولهم هذا اذا شاءوا دون ان احتج عليهم بشيء من اصول الشرائع والفضائل والآداب فان هذه كلها اصبحت على ما يظهر زياً قديماً جديراً بالبله والمخدوعين في هذه الحياة . ولكني اسأل ماذا يفعلون اذا سمعوا النداء التالي صادراً من صميم قلب المرأة التي يدنسونها وينزلونها منزلة العجماوات . هل يسدون آذانهم دون هذا النداء . فانها مثلاً يمكنها ان تقول لهم ما يأتي:

« لما رايتك في السوق ابتسمت لك في شفقٍ ولكني لعنتك في قلبي . فتبعتني الى البيت لتشتري شرفي . فلله ما اكرمك . انك بما تعطيني اياه الليله ساتمكن غداً من ان آكل واشرب جيداً في هذا البرد الشديد . فشكراً لك .. ولكن بعينيك اخبرني . لماذا العرض والشرف عندك غالٍ الى هذا الحد .. انك وضعتَ على المائدة ذهباً كاملاً فلماذا لم تكتفِ بوضع نصف ذهب .. يظهر انك تعرف قيمة العرض من انك ذو زوجة ولك امٌ واخت .. قه قه قه .. شكراً لك . لا تؤاخذني اذا قلت لك انني حين كنتُ الآن بين يديك اقبّل شفتيك كدتُ ابصق في وجهك . ولكنني ملكتُ نفسي وحوّلت غضبي ضحكاً فضحكت الضحكت العالية التي سمعتها . ولما سالتني عن سبب ضحكي الى هذا الحد كان جوابي انني ازددت تقبيلاً لك .. قه قه قه .. لماذا تستغرب كلامي . اظنك تقول في نفسك انني كنتُ كاذبة مرائية .. مسكين انت ايها الرجل الساذج . ماذا تريد اذاً ان اكون . هل تريد ان اقول لك الحقيقة : فاسمع اذاً . انني اعتبرك (خنزيراً دنيئاً) وهذا هو اسمكم عندنا كلكم ايها الرجال لما نتحادث عنكم . انني احتقرك اكثر مما احتقر نفسي لانني اتسفل لكي آكل خبزاً وانت تتسفل لتشبع شهوةً . انني اقول لك انك نبيه جميل والحقيقة انني اراك حماراً باربع آذان وقبيحاً قبحاً يثير نفسي اشمئزازاً كلما قبّلتك . انني ابغضك واكرهك كما اكره الشيطان والجحيم لانك وهيئتك الاجتماعية الدنيئة لا تسمحون لي ان آكل واعيش الا ببيع اثمن ما لديّ بابخس ما لديكم . لماذا اراك تغضب . وماذا تنتظر مني اذاً — « هنا تبكي » — اتريد ان تاكلني وابارك . اتريد ان تهينني في عرضي وشرفي واحترمك . لو كان في نفسك مثقال ذرة شرفاً وشهامةً لما اغضبك كلامي هذا لانه حق . فاترك الجدّ جانباً لانه مسيء . ولنبقَ في الهزل . خذ واشرب معي نخب معدتي ومعدتك لانهما كلتيهما تهضمان اشياء مدهشة »

فيا صديقي الصغير احمد بماذا يجيب اولئك البشر عن هذه الشكوى الهائلة . اتعرف لهم جواباً . وهل تطاوعهم نفوسهم بعد سماع ما تقدم على اعتبار هذا الامر بيعاً وشراءً لسلعة معروضة كما مرّ بنا

وكان احمد مصغياً اشدّ إصغاء . وقد رايته مرتين يمسح بمنديله دمعتين . فلما سكت بطرس اخذ احمد يده بلهفة وصاح باهتمام شديد — شكراً لك يا صديقي والف شكر . فانني علمتُ الآن انك ما تعبت بتفصيل ما فصلته الا لالقاء درس عليّ بصورة تأنيب وجهته الى غيري صيانةً لي . فكن على ثقة من ان كلامك هذا لا يذهب سدى .

فانني سانشره في الجهات الاربع . وكل من وقف عليه سيستفيد ما استفدته منه وهو الفرار من الانحطاط الى هذا الدرك الاسفل . ومن لا تعاف نفسه هذا الانحطاط فلا يستحق ان يسمى انساناً

٣

وما اتمّ احمد كلامه حتى سمعت قهقهة شديدة . فالتفتُّ فابصرت يوحنا ثالث الثلاثة واقفاً ورائي يضحك من كلام رفيقيه و يستهزئ بهما لانهما على المبادىء القديمة التي ذكراها . ولست ارى من الحكمة ان انشر ما دار بينه و بينهما بعد ذلك من الحديث لانه قال لها اقوالاً واعترض اعتراضات يجب الاعراض عنها . الاّ اذ وجدتُ مناسبة لذلك في مقالة تالية .

فلسطين واشهر بلدانها

(١) لحضرة نجيب افندي نصار في طبريا.

— نابلس —

(هي شكيم التي وقف المسيح على بئر قريب منها وجرى له مع السامرية الحديث المشهور الذي هو اسمى ما في الانجيل)

واقعة بين جبلي عيبال وجرزيم في وادٍ مملوء بالبساتين والاشجار النضرة التي تسقيها مياه ينابيع غزيرة . وتعلو ١٨٧٠ قدماً عن سطح البحر

سكانها عددهم نحو عشرين الف نسمة نحو مائتي سمرة والف مسيحيين اكثرهم روم ارثوذكس والباقون مسلمون . وكثيراً ما كان يُنسب لهم التعصب والتعدي حتى قال بعض كتبة الافرنج ان السياح كانوا يخافون المرور بنابلس فكانوا يسافرون من اليهودية الى الجليل بطريق يافا . غير اننا زرنا المدينة مراراً عديدة فعرفنا من اهلها انهم شديدو الاستمساك بدينهم و بصورة عمومية كرماء الاخلاق يدافعون عن الغريب . ومن

---

(١) هذه تتمة تاريخ وجغرافية فلسطين اللذين نشرهما في السنة الرابعة من المجامعة حضرة الكاتب بعد ان ساح بنفسه في تلك الانحاء سياحات طويلة